التي عندها قوارب تسير تحت الماء وان خاطرت بقي الخوف مستولياً على بحارتها فلا يستطيعون ان يعملوا عملاً مجرياً

التربية والحجاب

من كتاب «المرأة الجديدة» لقاسم بك امين القاضي بمحكمة الاستئناف المصرية

لو لم يكن في الحجاب عيب الا انهُ منافٍ للحرية الانسانية وانهُ صار بالمرأة الى حيث يستحيل عليها ان تتمتع بالحقوق التي خولتها لها الشريعة الغراء والقوانين الوضعية فجعلها في حكم القاصر لا تستطيع ان تباشر عملاً ما بنفسها مع ان الشرع يعترف لها في تدبير شؤونها المعاشية بكفاءة مساوية لكفاءة الرجل وجعلها سجينة مع ان القانون يعتبر لها من الحرية ما يعتبره للرجل — لو لم يكن في الحجاب الا هذا العيب لكفى وحده في مقتهِ وفي ان ينفر منهُ كل طبع غُرز فيهِ الميل الى احترام الحقوق والشعور بلذة الحرية . ولكن الضرر الاعظم للحجاب فوق جميع ما سبق هو انهُ يحول بين المرأة واستكمال تربيتها

اذا تقرَّر ان تربية المرأة من الضرورات التي لا يمكن أن يستغنى عنها فما هي التربية التي تناسبها ؟ هل يناسبها تربية كتربية الرجل او تخص بتربية اخرى ؟ وهل يمكن تربيتها مع الحجاب او لا بد فيها من ابطالهِ ؟ وهل يعمل فيها على قواعد تؤخذ من العلوم الغربية الحديثة او يُرجَع فيها الى اصول المدنية الاسلامية القديمة ؟

هذه المسائل تدخل في باب التربية والحجاب وقد دار البحث والجدال فيها في العام الماضي بين كثير من الكتاب والآن نريد ان نبدي رأينا فيها على غاية من الوضوح

ففي المسألة الاولى — لا نجد من الصواب ان تنقص تربية المرأة عن تربية الرجل . اما من جهة التربية الجسمية فلأن المرأة محتاجة الى الصحة كالرجل فيجب ان تتعود على الرياضة كما تفعل النساء الغربيات اللواتي يشاركنَ اقاربهنَّ الرجال في اغلب الرياضات البدنية . ويلزم ان تعتاد ذلك من اول نشأتها وتستمرَّ عليهِ من غير انقطاع والاَّ ضعفت صحتها وصارت عرضة للامراض . ذلك لان النواميس الطبيعية تقضي بضرورة التوازن بين ما يكسبهُ الجسم وما يفقدهُ بحيث لو اختلَّ هذا التوازن فسدت الصحة واختل نظامها . والامراض التي تصيب الانسان بسبب اهمالهِ استعمال قواهُ الجسمية ليست باقل عدداً ولا باخف ضرراً من الامراض التي تصيب من ينفق قوتهُ ولا يعوض بالتغذية ما فقد منها . ثم ان ما تقاسيهِ المرأة من الآلام

والمشقات حين الولادة في مرة واحدة ربما يزيد على ما يعانيه الرجل من المتاعب طول حياته ولا يحتمله من النساء الا قويات المزاج صحيحات الاجسام كنساء القرى المتعودات على العمل البدني المتمتعات بالهواء النقي. اما نساء المدن المحرومات من الحركة والتمتع بالشمس والهواء فلا قدرة لهن على احتمال هذه المشقات ولذلك فان اكثرهن يعشن عليلات بعد الولادة الاولى وكثيرًا ما يهلكن فيها فقد بلغ عدد من يموت منهن في النفاس اكثر من ثلاثين في الالف

وكما تلزم العناية بصحة المرأة لوقايتها من المرض والموت كذلك يلزم العناية بصحتها حرصًا على صحة اولادها ووقايتهم من العلل . لان ما يعرض على مزاج الام وما يكون فيه من الاستعداد للمرض ينتقل بالوراثة الى الاولاد

واما من جهة التربية الادبية فلأن الطبيعة قد اختارت المرأة وندبتها الى المحافظة على آداب النوع فسلمتها زمام الاخلاق وائتمنتها عليها . فهي التي تضع النفوس وهي ساذجة لا شكل لها فتصوغها في اشكال الاخلاق وتنشر تلك الاخلاق بين اولادها فينقلونها الى من يتصل بهم فتصبح اخلاقًا للامة بعد ان كانت اخلاقًا للعائلة كما كانت اخلاقًا للعائلة بعد ان كانت اخلاقًا للأم . هذا يدلنا على ان المرأة الصالحة هي انفع لنوعها من الرجل الصالح والمرأة الفاسدة هي اضرّ عليه من الرجل الفاسد . ولعل هذا هو السبب في ما وقر في نفوس الناس في كل زمان من أن الرذيلة الواحدة اذا تدنست بها المرأة حطت من قدرها اكثر مما تحط من شأن الرجل لو تدنس بها وان الفضيلة تعلي من شأن المرأة ما لا تعليه من شأن الرجل

بقي علينا الكلام على القسم الاخير من التربية وهو التربية العقلية . هذه التربية هي عبارة عن تعلم العلوم والفنون والغاية التي ترمي اليها هي ان يعرف الانسان ما في الكون من الموجودات حتى اذا عرف ذلك على حقيقته امكنه ان يوجه اعماله الى ما يعود عليه بالنفع ويتمتع بلذة المعرفة فيعيش سعيدًا

ولا تحصل المرأة على المطلوب من هذه التربية العقلية بتعلمها القراءة والكتابة واللغات الاجنبية بل تحتاج ايضًا الى تعلم أصول العلوم الطبيعية والاجتماعية والتاريخية لكي تعرف القوانين الصحيحة التي ترجع اليها حركات الكائنات واحوال الانسان كما انها تحتاج لتعلم مبادئ قانون الصحة ووظائف الاعضاء حتى يمكنها ان تقوم بتربية اولادها

والمهم في هذه التربية هو تشويق عقل المرأة الى البحث عن الحقيقة وليس حشو ذهنها بالمواد. حتى اذا انتهت مدة تعليمها في المدارس استمر شوقها الى الحق فتتحرك دائمًا اليه وتعتبر به وأضف على ذلك انهُ ينبغي على البنت ان تتعلم صناعة الطعام وترتيب البيت

ولا بدَّ هنا من استلفات النظر الى وجوب الاعتناء بتربية الذوق عند المرأة وتنمية الميل في نفسها الى الفنون الجميلة . واني على يقين من ان اغلب القراء لا يستحسنون ان تتعلم البنات الموسيقى والرسم لان منهم من يرى ان لا فائدة في الاشتغال بهذه الفنون ومنهم من يعدها من الملاهي التي تنافي الحشمة والوقار . وقد ترتب على هذا الوهم الفاسد انحطاط درجة هذه الفنون في بلادنا الى حدٍّ يأسف عليهِ كل من عرف ما لها من الفائدة في ترقية احوال الامم

هذه هي التربية التي نود ان تكون للبنات وقد بيَّناها اجمالاً لان المقام لا يسمح ببيانها تفصيلاً . هذه هي التربية الكاملة التي تيسر للمرأة الجمع بين واجباتها المختلفة المتعددة فتعدها لأن تكون انساناً يكسب عيشهُ بنفسهِ وزوجة قادرة على ان تحصل لعائلتها اسباب الراحة والهناء واماً صالحة لتربية اولادها

متى انتهت تربية البنت باتخاذ ما يلزم من الوسائل لتنمية قواها الجسدية وملكاتها العقلية تكون قد بلغت الرابعة عشرة او الخامسة عشرة من عمرها فما الذي ينبغي ان تكون عليهِ بعد ذلك ؟ وكيف تعيش ؟ أتحجب في بيتها وتمنع عن مخالطة الرجال أم تطلق لها الحرية في ذلك ؟ هذا هو موضوع البحث في المسألة الثانية والثالثة وسنتكلم عليهما معاً لما بينهما من الارتباط

رأى المنتقدون على تحرير المرأة انا تطرفنا في مسألة الحجاب وانا اشرنا برفعهِ تقليداً للعادات الغربية وزعموا ان الحجاب لا يوجب انحطاط المرأة ولا يترتب عليهِ ضرر لها ولذلك ذهبوا الى وجوب استبقائهِ والمحافظة عليهِ وقالوا ان الذي حطَّ بالمرأة عن منزلتها انما هو عدم التربية فلو تربت تربية حسنة لامكنها وهي في الحجاب ان تقوم بواجباتها احسن قيام

على اننا بعد ان دققنا النظر في جميع ما قيل او كُتب في هذا الشأن لا نزال على رأينا ولم يزدنا تكرار البحث فيهِ الاَّ وثوقاً بصحة ما ذهبنا اليهِ

ولا نرى سبباً للخلاف بيننا وبين مناظرينا الاَّ الاختلاف في فهم معنى التربية فهم يرون ان التربية هي التعلُّم وذلك يتم على رأيهم بمكث الصغير في المدرسة سنين محدودة تكون نهاية عملهِ فيها الحصول على الشهادة الدراسية وانهُ متى نال هذه الورقة السميكة التي سماها بعض ظرفاء الفرنساويين (جلد حمار) عُدَّ بالغاً في العلم والادب حد النهاية . ونحن على خلاف ما رأوا نعتقد ان التربية لا تقوم بالمكث في المدرسة والحصول على الشهادة وانما كل ما يستفيدهُ الصبي من ذلك في ايام التحصيل الأولى هو الاستعداد لتكميل عقلهِ وخلقهِ

ذلك لان الصبي في السنة الرابعة عشرة او الخامسة عشرة من عمرهِ لا يعرف من العلم الاَّ نظريات عامة ومسائل كلية يحفظها في جمل مختصرة . ومهما كانت هذه القضايا علمية او

ادبية فلا قيمة لها الاَّ بظهورها في العمل وذلك يكون بالمشاهدات والتجارب التي تحدد دائرة تطبيقها والحد الذي يفصلها عن غيرها وتبين الاحوال التي تدخل فيها او تخرج عنها وجهات نفعها وضرها . وهذه التطبيقات هي الواسطة الوحيدة في فهم القواعد على حقيقتها فاذا انعدمت لا تكون هذه القواعد الاَّ الفاظاً وخيالات

وكذلك الحال في الآداب والاخلاق . اذ لا شيء على الانسان اسهل من ان يعلم مقدار الفائدة في ضبط شهواته وقهرهِ نفسهُ ولكن لا شيء اصعب في العمل من ان يأتي ذلك بالفعل . لان قهر الانسان لهواهُ وجعلهُ تحت سلطان العقل يستدعي قوة عظيمة في الارادة . ولا توجد هذه القوة في الارادة باقامة الحوائل المادية بينهُ وبين النقائص ولا بمجرد حشو ذهنهِ بالقواعد الادبية وانما تتولد بالتعرض لملاقاة الحوادث والتعوُّد على مغالبتها والتغلب عليها

فمزاولة الاعمال ومشاهدة الحوادث واختبار الامور ومخالطة الناس والاحتكاك بهم والتجارب كل هذه الاشياء هي منابع للعلم والآداب الصحيحة . بها ترتقي النفوس الكريمة حتى تبلغ اعلى الدرجات وامامها تنهزم النفوس الضعيفة وتسقط الى اسفل الدركات

والحجاب مانع للمرأة من ورود هذا المنبع النفيس لأن المرأة التي تعيش مسجونة في بيتها ولا تبصر العالم الاَّ من نوافذ الجدران او من بين استار العربة ولا تمشي الاَّ وهي كما قال الامير علي القاضي "ملتفة بكفن" لا يمكن ان تكون انساناً حياً شاعراً خبيراً باحوال الناس قادراً على ان يعيش بينهم

ولا يكفي لاخراج المرأة المصرية من هذه الحياة الصناعية التي يشكو الكل منها ان تمكث بضع سنين في المدرسة ثم تنتقل منها الى بيت تحتجب فيهِ بقية عمرها بل يلزم ان تستمر في الاعتناء بجسمها وعقلها بعد المدرسة . يلزم ان نضع يدنا في يدها ونسير معها في الارض ونريها عجائب الكون ولطائف الصناعة ودقائق الفنون وآثار الزمن الغابر واختراعات الزمن الحاضر. يلزم ان تقاسمنا افكارنا وآمالنا وافراحنا وآلامنا وتحضر مجالسنا فتستفيد مما يعرض فيها من الاخلاق والافكار والمباحث وتفيدنا بحملنا على رعاية الحشمة والتأدب في القول

يقول معترض : " انا نراك تريد ان تحسن حال المرأة المصرية بحملها على تقليد المرأة الغربية فهلاَّ أعرت تمدننا القديم الذي كان من اصولهِ احتجاب النساء نظرةً وهل من نفوس كريمة يهزها ذكرى تجدها القديم فتلتفت الى اصولهِ لفتة عملية ترى انهُ هو المجد الصحيح الذي يجب ان تشد لهُ رواحل العزائم والذي سيتضح للعالم اجمع يوماً ما انهُ هو نفس الكمال الذي ينشدهُ الانسان ويلتمسهُ الوجدان "

هذا الاعتراض ربما يلذ للقارئ سماعهُ لطلاوة لفظهِ وربما ينجذب اليهِ لانهُ يحرك الميل الغريزي الموجود في كل انسان الى التعلق بآثار الآباء والاجداد . ولكن الاجدر بنا ان لا نجعل للفظ تأثيرًا فينا الى حد يذهلنا عن الحق. وعلينا ان نأخذ اهبتنا لمقاومة سلطة العادات الموروثة اذا خشينا ان تسلبنا ارادتنا واختيارنا . والتعلق بالتقاليد الراسخة لا يحتاج الى التحريض والترغيب لانهُ حالة لازمة للنفس آخذة بزمامها فهي مستغرقة فيها من ذاتها وانما الذي يحتاج للتشويق والتشجيع هو التخلص من ماضٍ ضارّ واعتناق مستقبل نافع

اذا امكننا ان نأخذ تلك الاهبة كان من اهمّ ما يجب علينا ان نلتفت الى التمدن الاسلامي القديم ونرجع اليهِ ولكن لا لننسج منهُ صورة ونحتذي مثال ما كان فيهِ سواء بسواء بل لكي نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر في اسباب ارتقاء الامة الاسلامية واسباب انحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع بهِ اليوم وفي ما يستقبل من الزمان

ظهر الدين الاسلامي في جزيرة العرب بين قومٍ كانوا يعيشون في حال البداوة اي في ادنى الحالات الاجتماعية فاوجد بينهم رابطة ملية واخضعهم الى رئيس واحد ووضع لهم شرعًا نسخ ما كان عندهم من العادات المتبعة في معاملاتهم من قديم الزمان . ولما امرهم بالجهاد اخذوا يحاربون الامم الاخرى واستولوا عليها ولم يكن ذلك بامتيازهم على من جاورهم من الامم في العلوم والصنائع ولكن كان بروح الوحدة التي بعثها الاسلام فيهم مع استعدادهم الفطري للقتال فلما اختلطوا بالمصريين والشاميين والفرس والصينيين والهنود وغيرهم وجدوا عند هؤلاء الامم كثيرًا من العلوم والصنائع والفنون فاستفادوا منها ونقلوا معظمها الى لسانهم وسمحوا لاولئك المغلوبين ان يأتوا في ترقيتها بما شاؤُا . وظهرت عند ذلك نهضة علمية كما هو الشان في الامم عقب كل انقلاب يجري لغاية صالحة استمرّت مدة اربعة قرون تقريبًا

على هذين الاساسين شيدت المدنية الاسلامية . الاساس الديني الذي كوّن من القبائل العربية امة واحدة خاضعة لحاكم واحد ولشرع واحد . والاساس العلمي الذي ارتقت بهِ عقول الامة الاسلامية وآدابها الى الحد الذي كان في استطاعتها ان تصل اليهِ في ذلك العهد

ولكن لما كان العلم في تلك الاوقات في اول نشأتهِ وكانت اصولهُ ضروبًا من الظنون لا يؤيَّد اكثرها بشيء من التجارب كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين فتغلب الفقهاء على رجال العلم ووضعوهم تحت مراقبتهم وزجُّوا بانفسهم في المسائل العلمية وانتقدوها . وحيث انهم لم يأتوا اليها من بابها ولم يجهدوا انفسهم في فهمها اخذوا يؤولون الكتاب والاحاديث بتأويلات استنبطوا منها ادلة على فساد المذاهب العلمية وحملوا الناس على ان ييئسوا الظن بها وما زالوا

يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروهُ وانتهى بهم الحال الى الاعتقاد بان العلوم جميعها باطلة الاّ العلوم الدينية . بل غالوا في دينهم وشطوا في رأيهم حتى قالوا في العلوم الدينية نفسها انها لا بد ان تقف عند حد لا يجوز لاحد ان يتجاوزهُ . فقرروا ان ما وضعهُ بعض الفقهاء هو الحق الابدي الذي لا يجوز لاحد ان يخالفهُ وكأنهم رأوا من قواعد الدين ان تُسدَّ ابواب فضل الله على اهلهِ اجمعين

هذا النزاع الذي قام بين اهل الدين واهل العلم ولا اقول بين الدين والعلم لم يكن خاصًّا بالامم الاسلامية بل وقع كذلك عند الامم الاوربية . ولكن لما كانت هذه الامم قد ورثت علوم اليونان والرومان والعرب وكان وصول تلك العلوم اليها قرب تمام تكوينها لم تحتج اوربا الى زمن طويل في اكتشاف الاصول الحقيقية لتلك العلوم . وقد نالت منها في مائتي سنة ما لم ينلهُ غيرها في آلاف من السنين . وتوالت الاكتشافات العلمية يجر بعضها بعضًا ويرشد بعضها الى بعض . فمنها اكتشاف قوانين سير الكون وتحليل الضوء وسرعة سيرهِ وكيفية تكوُّن الاصوات وسرعتها وشكل اهتزازاتها . وعلمت ماهية الحرارة وكيفية تكوُّن الكرة الارضية وحقيقة شكلها وتكون طبقات الارض وتقادم الاعصار عليها وعلى سكانها وضروب التغييرات التي طرأت عليها والادوار التي تقلبت فيها من وقت ان كانت كتلة نارية الى ان ظهر فيها النوع الانساني بعد جميع الانواع الاخرى . ثم عرفت قوانين الحياة ووظائف الدورة الدموية والتنفس والهضم وخصائص قوى الادراك وكيف تتكوَّن خلايا الجسم وكيف تعيش وكيف تفنى . وصححت وكملت اصول الكيمياء والطبيعة

بكشف هذه الحقائق شيد العلم بناء متينًا لا يمكن لعاقل ان يفكر في ان يهدمهُ . ولهذا تغلب رجال العلم على رجال الدين في اوربا بعد النزاع والجهاد وانتهى الحال بان صار للعلم سلطة يعترف لهُ بها الناس كافة

فاذا كان التمدن الاسلامي بدأ وانتهى قبل ان يكشف الغطاء عن اصول العلوم كما بيَّناهُ فكيف يمكن ان نعتقد ان هذا التمدن كان "نموذج الكمال البشري" يهمنا ان لا نبخس اسلافنا حقهم ولا ننقص من شأنهم ولكن يهمنا مع ذلك ان لا نغش انفسنا بان نتخيَّل انهم وصلوا من التمدن الى غاية من الكمال ليس وراءها غاية

نحن طلاب حقيقة اذا عثرنا عليها جاهرنا بها مهما تألم القراء من سماعها . لذلك نرى من الواجب علينا ان نقول انهُ يجب على كل مسلم ان يدرس التمدن الاسلامي ويقف على ظواهرهِ وخفاياهُ لانهُ يحتوي على كثير من اصول حالتنا الحاضرة ويجب عليهِ ان يعجب بهِ لانهُ عمل

انتفعت بهِ الانسانية وكملت بهِ ما كان ناقصاً منها في بعض ادوارها ولكن كثيراً من ظواهر هذا التمدن لا يمكن ان يدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية. اما من جهة العلوم فالامر ظاهر لما سبق بيانهُ . واما من جهة النظامات السياسية فلأَننا مهما دققنا البحث في التاريخ لا نجد عند اهل تلك العصور ما يستحق ان يسمى نظاماً فان شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة او سلطان غير مقيد يحكم بواسطة موظفين غير مقيدين فكان الحاكم وعمالهُ يجرون في ادارتهم على حسب ارادتهم فان كانوا صالحين رجعوا الى اصول العدالة بقدر الامكان وان كانوا غير ذلك خرجوا عن حدود العدالة وعاملوا الناس بالعسف ولم يكن في النظام ما يردهم الى اصول الشريعة

ربما يقال ان هذا الخليفة كان يولّى بعد ان يبايعهُ افراد الامة وان هذا يدل على ان سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذي هو صاحب الامر . ونحن لا ننكر هذا ولكن هذه السلطة التي لا يتمتع بها الشعب الاَّ بعض دقائق هي سلطة لفظية . اما في الحقيقة فالخليفة هو وحدهُ صاحب الامر فهو الذي يعلن الحرب و يعقد الصلح ويقرّر الضرائب و يضع الاحكام ويدير مصالح الامة مستبدًّا برأيهِ ولا يرى من الواجب عليهِ ان يشرك احداً في امره

ومن الغريب ان المسلمين في جميع ازمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الامة اليونانية ولم يتوصلوا الى ما وصلت اليهِ الامة الرومانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ مصالح الامة وحريتها فقد كان لتلك الامم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم في ادارة شؤُونها

واغرب من هذا ان امراء المسلمين وفقهاءهم لم يفكروا في وضع قانون يبين الاعمال التي وجدوا انها تستحق العقاب و يحدد العقوبات عليها بل تركوا حق التعذير الى الحاكم يتصرَّف فيهِ كيف يشاء . مع ان بيان الجرائم وعقابها هو من اوليات اصول العدالة

ولست محتاجاً ان اقول انهم ما كانوا يعرفون شيئاً من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فان هذه العلوم حديثة العهد . واذا اراد مكابر ان يتحقق من ذلك فما عليهِ الاَّ ان يتصفح مقدمة ابن خلدون وهو الكتاب الفرد الذي وُضع في الاصول الاجتماعية عند المسلمين يرى ان الاصول التي اعتمد عليها لا يخلو معظمها من الخطإ ويندهش على الخصوص عند ما يرى ان هذا الكتاب الذي وُضع للبحث في المسائل الاجتماعية لم تذكر فيهِ كلمة واحدة في العائلة التي هي اساس كل هيئة اجتماعية

فاذا كانت حالتهم السياسية كما ترى فما الذي يطلب منا ان نستعيرهُ منها ؟

كذلك اذا نظرنا الى حالتهم العائلية نجد انها مجردة عن كل نظام حيث كان الرجل

يكتفي في عقد زواجهِ بان يكون امام شاهدينْ و يُطلق زوجتهُ بلا سبب او باوهى الاسباب ويتزوج عدة نساء بدون مراعاة حدود الكتاب . كل ذلك كان واستمرّ الي الآن على ما هو مشهور ولم يفكر احد من الحكام او الفقهاء في وضع نظام يمنع ضرر انحلال روابط العائلة . واقلّ ما كان يلزمهم لرفع ذلك الخلل ان يقرّروا مثلاً ان ايقاع الطلاق وعقود الزواج والرجعة لا بد ان تكون امام مامور شرعي حتى لا تبقى هذه الشؤون موضعاً للريب ومحلاً للشبهة ومثاراً للنزاع والشقاق

اين هذه الفوضى من النظامات والقوانين التي وضعها الاوربيون لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الاهلية . بل اين هي من القوانين اليونانية والرومانية التي لم تغفل في جميع ادوارها عن اهمية العائلة وشأنها في الهيئة الاجتماعية ؟ فاي شيء من هذا يمكن ان يكون صالحاً لتحسين حالنا اليوم ؟

بقي علينا ان نلتفت الى التمدن الاسلامي من جهة الآداب. يعتقد اهل عصرنا ان المسلمين السابقين كانوا حائزين لجميع انواع " الكمالات الاخلاقية الصحيحة " وهو اعتقاد غير صحيح او على الاقل مبالغ فيهِ . اما من جهة اصول الأدب فالمعلوم ان المسلمين لم يأتوا العالم باصول جديدة . فقد سبق المسلمين امم كاليهود والنصارى والبوذيين والصينيين والمصريين وغيرهم وقد كانت تلك الامم تعرف تلك الاصول وضمنتها كتبها ونزلت على بعضها في وحي سماوي . واما من جهة عمل المسلمين على مقتضى تلك الاصول الادبية فالتاريخ يشهد ان كل عصر لا يخلو من الطيب والرديء والحسن والقبيح وقد وصلت الينا اخبار العرب مدونة في الكتب التاريخية والادبية فكشفت لنا الغطاء عن اخلاقهم ومعاملاتهم واطلعنا على شعرهم وامثالهم واغانيهم فما وجدنا زمناً من الازمان خالياً من الآداب الفاسدة والاخلاق الرذيلة والطبائع الدنيئة . رأينا الدولة العربية من بعد وفاة النبي صلى الله عليهِ وسلم الى آخر ايامها ممزقة بالمنازعات الداخلية الناشئة عن التباغض والحقد وحب الذات حتى في الاوقات التي كانت فيها الدولة مشتغلة بامر الحروب مع الامم الاخرى . رأينا احد اولاد علي رضي الله عنهُ تزوج باكثر من مائة امرأة حتى التجأ والدهُ ان ينصح الناس بان لا يزوجوهُ بناتهم . رأينا من الرجال من كان يعترض النساء في الطريق ويختلس النظر اليهنَّ من خروق الحائط .رأينا من امرائهم واعاظمهم من كان يشرب الخمر حتى لا يعي ما يقول في مجالس تحضرها الجواري وتطرب الحاضرين بنغمات الموسيقى. رأينا من شعرائهم من يستجدي العطايا و يمد يدهُ ملتمساً رزقهُ من فضلات الامراء والاغنياء ومنهم من يمدح نفسهُ ويثني عليها ويذهب في ذلك الى حدٍ ليس

بعدهُ الاَّ الجنون او يتغزل في ولد او يهجو خصمهُ بعبارات الفحش والفاظ الوقاحة التي يستحى من تصورها فضلاً عن التفوه بها . رأينا من مؤرخيهم من يزوّر في التاريخ ومن فقهائهم من يخترع الاحاديث و يضعها لغايتهِ الذاتية

فاي زمن من الازمان السابقة كان منزهًا عن العيوب حتى يصح ان يقال انهُ "نموذج الكمال البشري" الكمال البشري يجب ان لا نبحث عنهُ في الماضي بل ان اراد الله ان يمن بهِ على عبادهِ فلا يكون الاَّ في مستقبل بعيد جدًا

متى تقرَّر ان المدنية الاسلامية القديمة هي غير ما هو راسخ في مخيلة الكتَّاب الذين وصفوها بما يحبون ان تكون عليهِ لا بما كانت في الحقيقة عليهِ وثبت انها كانت ناقصة من وجوه كثيرة فسيان عندنا بعد ذلك ان كان احتجاب المرأة من اصولها او لم يكن . وسواءٌ صح ان النساء في ازمان خلافة بغداد او الاندلس كنَّ يحضرنَ مجالس الرجال او لم يصح فقد صح ان الحجاب هو عادة لا يليق استعمالها في عصرنا

ونحن لا نستغرب ان المدنية الاسلامية اخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها فليس خطأها في ذلك اكبر من خطإها في كثير من الامور الاخرى

وغني عن البيان اننا عند كلامنا على المدنية الاسلامية لم نقصد الحكم عليها من جهة الدين بل من جهة العلوم والفنون والصنائع والآداب والعادات التي يكوّن مجموعها الحالة الاجتماعية التي اختصت بها . ذلك لان عامل الدين لم يكن وحدهُ المؤثر في وجود تلك الحالة الاجتماعية فهو على ما بهِ من قوة السلطان على الاخلاق لم ينتج الاَّ اثرًا مناسبًا لدرجة عقول وآداب الامم التي سبقت

والذي اراهُ ان تمسكنا بالماضي الى هذا الحد هو من الاهواء التي يجب ان ننهض جميعًا لمحاربتها لانهُ ميل يجرنا الى التدني والتقهقر . ولا يوجد سبب في بقاء هذا الميل في نفوسنا الاَّ شعورنا باننا ضعاف عاجزين عن انشاء حال خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن ان تستقيم بها مصالحنا . فهو صورة من صور الاتكال على الغير كأن كلاًّ منا يناجي نفسهُ قائلاً لها : اتركي الفكر والعمل والعناء واستريحي فليس في الامكان ان تأتي بابدع مما كان

هذا هو الداء الذي يلزم ان نبادر الى علاجهِ . وليس لهُ من دواء الاَّ اننا نربي اولادنا على ان يتعرفوا شؤون المدنية الغربية ويقفوا على اصولها وفروعها وآثارها واذا اتى هذا الحين ونرجو ان لا يكون بعيدًا انجلت الحقيقة امام اعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربي وتيقنا انهُ من المستحيل ان يتم اصلاح ما في احوالنا اذا لم يكن مؤسسًا على العلوم العصرية الحديثة وان احوال الانسان مهما اختلفت وسواء كانت مادية او ادبية خاضعة لسلطة العلم . انتهى